



منهج الإصلاح في القرآن والسنة

خطب الجمعة

محاضرة في الأردن

2020-08-31

عمان

الأردن

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ بَيْتِهِ الطَّاهِرِينَ وَعَلَى صَحَابَتِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ أَمَاءَ دَعْوَتِهِ وَقَادَةِ أَوْنَتِهِ وَارْضَ عَنْهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْقِصْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا مُتَقَبَلًا صَالِحًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

عنوان لقائنا اليوم منهج الإصلاح، كلمة الإصلاح راقية يحيا كُلُّ مصلح ويخشى منها كُلُّ مفسد، من لا يحب أن يصلح؟ أن يصلح نفسه وأن يصلح أهل بيته، بل يطمح أحياناً أن يصلح العالم كله، فالأرض خُلِقَتْ من أجل أن تصلح لا من أجل أن يُفسد فيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُلِكَ الْخِزْيُ وَالنَّسْلُ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْقَسَادَ

(سورة البقرة: الآية 205)

تعريف الإصلاح



الفساد هو أن تُخرج الشيء عن طبيعته

فالإصلاح أن تضع كلَّ شيءٍ في موضعه، فالمرأة تكون سالحةً حين تكون زوجةً، وتكون سالحةً حين تكون أمًّا رؤومًا، وتكون سالحةً حين تكون جدةً مقدرةً في بيتها، أما عندما تخرج المرأة عن الهدف الذي خُلقت من أجله تصبح سلعةً ينظر إليها كلُّ إنسان بعين الشهوة، هذا شأن المفسدين يريدون الإفساد، فالفساد ليس من شأن المؤمن، والإفساد هو أن تضع الشيء في غير موضعه فيفسد، السكر مادة مفيدة ولذيذة والملح مادة مفيدة، لكن الملح يوضع في الطبخ والسكر يوضع مع الحلويات، فمن الفساد أن تضع السكر في الطعام المطبوخ وأن تضع الملح في الحلوى المعدة للضيوف، هذا فساد، فالفساد هو أن تُخرج الشيء عن طبيعته، الله تعالى خلق المرأة أمًّا وزوجةً وأختًا وجدةً وامرأةً مصانةً في المجتمع، فلما أخرجت عن وظيفتها وأمرت بالتبرج وأمرت بمزاحمة الرجال في أماكنهم أفسدت، هذا هو الفساد أخرجت عن طبيعتها، وليس المرأة فقط كل شيء يفسد عندما تستخدمه في غير ما خُلِقَ له، الله تعالى خلق العقل ليصل إلى خالق السماوات والأرض فيسعد في الدنيا والآخرة، لكن عندما نستخدم العقل لغير ما خلق له فنحكّمه في شرع الله عزَّ وجلَّ ونقول: هذا أعجبنا وذاك الحديث لم يُعجبنا وتلك الآية لهذا العصر وتلك الآية لعصر آخر، الآن العقل أخرج عن وظيفته، خلقه الله لوظيفة أن يصل إلى الله وأن يفهم الشرع فجعله بعض الناس حكمًا على الشرع فأفسدوا العقل!



القلب في أصل خلقه

والقلب يفسد؛ القلب في الأصل خلقه الله ليحب الحبَّ الطاهر البريء، ليحب الله، ليحب رسل الله، ليحب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليحب الخير، ليحب الزوجة، ليحب الولد، ليحب أهل بيته، ليحب المؤمنين، فلما أخرج القلب عن طبيعته وجعلوا للحب يومًا ترتكب فيه الموبقات وتنتهك فيه الحرمات باسم عيد الحب فالقلب أفسد، لم يخلق القلب لذلك، كل شيء يمكن أن يفسد عندما يخرج عن طبيعته (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْقَاسَاتِ) الله يحب الصلاح، يحب الإصلاح، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ

(سورة الأعراف: الآية 170)

كن مصلحًا والله يتولاك، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ

(سورة الأعراف: الآية 142)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَتَّبِعِ الْقِسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

(سورة القصص: الآية 77)

قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ

(سورة يونس: الآية 81)

مهما رأيت من المفسيد أنه انتفش وأخذ قوةً وبدا لك أنه في وضع كبير وفي وضع بهابه وبخشاها الناس مهما بدا لك من فوره قل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) لا بد أن يُعيد الله عليه خطته التي يريد بها إفساد الآخرين (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) هذا قانون لا يتخلف ولا يتغير.

أنواع الإصلاح

الإصلاح أيها الأحباب؛ هنا دخلنا في صلب الموضوع بعد هذه المقدمة، الإصلاح نوعان: أن يُصلح الفرد وأن يُصلح المجتمع، ما منا واحد إلا ويملك أن يُصلح نفسه وأن يبذل جهده في إصلاح من يعولهم ويقوتهم من أبناء بيته وأهل بيته وأسرته وربما عائلته وربما ينتقل إلى إصلاح المجتمع لكن يجب أن يبدأ الإنسان بإصلاح نفسه فأصلاح الفرد هو الأساس، كيف يصلح الفرد؟

جاء عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال:



إصلاح الأمة بالقرآن الكريم

كيف صلح أول هذه الأمة؟ بالقرآن الكريم، بشكل رئيسي صلحت هذه الأمة بالقرآن الكريم، أمة الإسلام أكبر من العروبة، الأمة التي بلغها وحى السماء أمة التبليغ، الأمة نوعان: أمة استجابة، وأمة تبليغ، نحن إن شاء الله من أمة الاستجابة، بلُغنا واستجبنا، أمرنا ففعلنا، نهينا فاجتنبنا، نحن من أمة الاستجابة، لكن أمة التبليغ اليوم مليار ونصف مليار مسلم على سطح الأرض هذه كلها بلُغَتْ وصلتها دعوة الإسلام، لكن الأمة التي نُعَوِّلُ عليها هي أمة الاستجابة، فكيف صلح أمر هذه الأمة أمة التبليغ؟ كل من بلُغَ برسالة الإسلام كيف صلح أمرهم؟ بالقرآن الكريم، العرب كانت قبائل منهم تئد البنات وكانوا يقيمون حروباً تمتد لأربعين سنة من أجل ناقة، وكان عندهم من مساوئ الأخلاق ما عندهم، وعندهم من مكارمها للأمانة، عندهم من مكارم الأخلاق، فقال صلى الله عليه وسلم:

{ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ }

(أخرجه البخاري)

لأن عندهم بعض الصفات لكن رَشَّدها الإسلام، فهذه الأمة كيف صلحت؟ صلحت بالقرآن الكريم، صلحت بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أردنا أن نصلح الفرد في آخر الزمان فينبغي أن ننظر في صلاحه في أول الزمن

الفرق بين المواطن الصالح والعبد الصالح

القوانين الرَّادعة قد تُصلح بعض الأفراد لكن هذا الصلح ليس صلحاً عاماً وإنما صلح جزئي مادامت القوانين منفذةً وكاميرات المراقبة تعمل فقد تصلح الأفراد بكاميرات المراقبة، لكن هل هذا هو العبد الصالح الذي يسعى الإسلام إليه؟! بعض المفكرين كان يقول: "إنَّ الغرب أنشأ المواطن الصالح لكن الإسلام أراد أن يُنشئ الإنسان الصالح"، كيف؟.



المبادئ لا تتجزأ

المواطن الصالح لا يرمي القمامة في الطريق، والمواطن الصالح في بلده لا يتجاوز إشارة المرور، والمواطن الصالح لا يرفع صوت التلفاز فيؤذي جاره، لكن المواطن الصالح قد يرتكب الزنا، والمواطن الصالح قد يقوم بكل الموبقات في بيته وقد يشرب الخمر ويذهب عقله وقد يؤدي به ذلك إلى أشياء وأشياء لا ترضي الله لكنه مواطن صالح! في المجتمع الغربي هو مواطن ومواطنته صالحة، المواطن الصالح يخشى على قطعة من القسط أن يصيبها مكروه لكنه لا يلتفت إذا كانت شعوب في الأرض تُقصِف بالقنابل الفسفورية والقنابل الفراغية وتنزل البراميل المتفجرة فوق رؤوسها لا يهمه ذلك ولا يعنيه ويتخبر من يدعون ذلك لأنه مواطن صالح! هو داخل وطنه مواطن صالح، لكن الإسلام ما أراد مواطناً صالحاً أراد عبداً صالحاً، الصلاح لا يتجزأ، المبادئ لا تتجزأ، أنت صالح في كل زمان وفي كل مكان، اتَّقِ الله حيثما كنت، الإنسان الصالح لا يسرق ولو كان من غير المسلم

{ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِتًّا }

(صحيح الترغيب)

النبي صلى الله عليه وسلم يوم هاجر ترك عليّاً في فراشه كما في الرواية الصحيحة ليؤدي الودائع إلى أهلها لأنه إنسان صالح، فالإنسان الصالح غير المواطن الصالح، نحن نسعى إلى الإنسان الصالح، المسلم بيني الصلاح في الفرد بحيث يلتزم هذا الفرد بالمبادئ ويلتزم بالقيم ويلتزم بالدين في أي مكان وفي أي زمان ولا يبيع دينه بعرضٍ من الدُّنيا قليل.

إصلاح الفرد في القرآن الكريم



إقامة الصلاة إصلاحٌ للعلاقة مع الله

فإصلاح الفرد في القرآن الكريم ينطلق من مبدئين: قد تنبّهون في القرآن الكريم إلى أنه يتكرر دائماً: (أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) (يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) تكرر تلازم هذين الغرضين من فروض الإسلام والركنين من أركان الإسلام؛ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، بينما الحج مثلاً والصيام وردا في آيات أخرى، لماذا شدد القرآن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟ لأن إقامة الصلاة هي تعبير عن إصلاح الفرد بعلاقته بربه، وإيتاء الزكاة هي تعبير عن إصلاح الفرد من خلال علاقته مع الآخرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ

(سورة الكوثر: الآية 2)



الزكاة تعبير عن العطاء

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ) هذه العلاقة العمودية، (وَانْحَرْ) لإطعام المساكين هذه العلاقة الأفقية مع الآخرين، فتكرر هذان الركنان من أركان الإسلام لأنهما يشكلان علاقة الإصلاح الحقيقية، فيُصلح الإنسان علاقته بربه بالصلاة ويُصلح علاقته بالآخرين بالزكاة، فالزكاة تعبير عن العطاء، والصلاة تعبير عن حسن الصلة بالله، فأنت تقف بين يدي الله فتُصلح نفسك ثم تنطلق إلى الآخرين فتعطيهم وتهبهم فيؤدي ذلك أيضاً إلى صلاح نفسك، فتصلح نفسك من خلال علاقتك بالله وعلاقتك بالناس (أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ). سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام المصلحين أصلح الدنيا كلها يوم أن صلحت علاقته بربه.

{ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ
وَقَدْ عُفِّرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: "أَقْلًا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا" }

(متفق عليه)

لِمَ تَصْنَعُ هَذَا؟! نحن نقف بين يدي الله لأن لنا ذنباً نقول: يارب اغفر لنا، لعل الله يغفر لنا السيئات بالحسنات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ

(سورة هود: الآية 114)

الإصلاح يكون ببناء علاقة صحيحة مع الله تعالى

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح علاقته بربه ويقف بين يديه الساعات الطوال وليس له ذنوب فقد قال له الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُثَبِّتَ يَدَكَ وَيُغْنِيَ عَنْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَتُضَرِّكَ اللَّهُ تَضَرُّعًا غَزِيرًا

(سورة الفتح: الآية 1-2-3)

(وَمَا تَأَخَّرَ) يعني وما سيأتي، ماذا كان جواب محمد صلى الله عليه وسلم؟ (قَالَ: أَقَلَّ أَحِبُّ أَنْ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا).

القضية قضية إصلاح نفوس، أنا أحب أن أفهم بين يدي الله لأشكره على نعمائه، فالوقوف بين يدي الله ليس دائماً استغفاراً من ذنب وإنما هو بناء علاقة صحيحة مع الله يصلح بها الإنسان ويصلح بها الآخرين، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ

(سورة النساء: الآية 146)



التوبة تحتاج إلى إصلاح

(تَابُوا وَأَصْلَحُوا) يأتي الإصلاح بعد التوبة، بمعنى أن التوبة أحياناً تحتاج إلى إصلاح، لأن الذنوب نوعان: هناك ذنوب بينك وبين الله تكفيها التوبة، والصلة بلمحة، وهناك ذنوب بينك وبين عباد الله، (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا)، فلا بد أن تصلح بعد أن تتوب، كأن يكون إنسان قد استغل إنساناً وأخذ منه مالا بغير وجه حق فيتوب إلى الله ثم يصلح ما بينه وبين عباد الله (تَابُوا وَأَصْلَحُوا).

فالفرد أحياناً الكرام؛ لا تصلح علاقته بنفسه إلا إذا عرف ربه ووقف بين يديه وأحسن الصلة به، هذا إصلاح الفرد، لا يوجد طريق آخر حتى تصلح النفس إلا بمناجاة الله عز وجل، القوانين تُصلحها بشكل جزئي، تضبطها لكن لا تصلحها، النفوس تصلح بالعلاقة مع الخالق جلَّ جلاله، بالمدد من الله عز وجل.

إصلاح ذات البين

أما إصلاح الآخرين فهذا يسمى في الدين: إصلاح ذات البين.

{ قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين،

فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين " }

(رواه أبو داود والترمذي وأحمد)

فالإسلام يحض على الإصلاح، أن تصلح كل علاقة بينك وبين الآخرين، هذا (ذات البين) إما بينك وبين الآخرين أو بين اثنين من الآخرين، هذا (إصلاح ذات البين)، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) نسأل الله السلامة.



المجتمع لا تصلح إلا بالعدل

الآن من بنود الإصلاح أو من منهج الإصلاح القرآني أن المجتمع لا يصلح إلا بالعدل؛ قد تقول لي: ما علاقتنا بالمجتمع الكبير! نحن ليس لنا سلطة على المجتمع؟ المجتمع ليس معناه كل المجتمع، إذا كان هناك بلد فيه ستة ملايين فرد فهل نقصد إصلاح ست ملايين! لا، هناك مجتمعات صغيرة، أنت تصلح علاقتك بمجتمعك مع أبنائك ومع أسرته ومع عائلته ومع العاملين في المعمل عندك، فهناك مجتمع صغير ومجتمع كبير، فالإنسان يملك مجتمعات كثيرة لكن قد لا يملك المجتمع الكبير، فننحدث عن إصلاح المجتمع، من منهج الإصلاح القرآني أنه لا بد في إصلاح المجتمعات من العدل، المجتمعات لا تصلح إلا بالعدل.

عصر المبادئ

إخواننا الكرام: مالك بن نبي رحمه الله فيلسوف ومفكر جزائري إسلامي كبير، له نظرية جميلة جداً؛ يقول مالك بن نبي: إن العصور التي تمر فيها البشرية ثلاثة عصور: عصر يسمى عصر المبادئ والقيم، وعصر يسمى عصر الأشخاص، وعصر يسمى عصر الأشياء.



الصدق هو السمة الرئيسية لعصر المبادئ

في عصر المبادئ يذوب الأشخاص وتصبح القيمة للمبدأ والقيم، عصر المبادئ عصر الصدق، الأمانة، الحب، الخير، السلام، هذا عصر مبادئ، الأشخاص قيمتهم من قيمة المبدأ الذي يحملونه فإذا أعرضوا عن المبدأ نزلت قيمتهم، يعيش الناس في عصر المبادئ، هذا أعظم العصور، هذا كان في عصور الإسلام الراقية وفي عصر الخلافة الراشدة، كانت القيمة للمبدأ.

يوم مات رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتقل إلى الرفيق الأعلى من حب عمر له رضي الله عن عمر قال: "من قال إن محمداً قد مات قطع رأسه"، لم يستطع أن يتحمل الصدمة، لأن رسول الله يحمل الرسالة صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته كانت أعظم مصيبة نزلت بالمسلمين إلى يوم القيامة، وما نزلت مصيبة بمسلم فتذكر مصيبة المسلمين برسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا هانت عليه مصيبته.

فلما قال عمر ذلك قام أبو بكر رضي الله عنه لينتصر للمبدأ فقال: كما في صحيح البخاري:

{ أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُعْبِدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُعْبِدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ }
(صحيح البخاري)

أبو بكر يحب رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كحب عمر لرسول الله أو أشد، لأن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول عن أبي بكر:

{ إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ لِيَنَّكُمْ فُقُلْتُمْ كَذَّبَتْ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَأَسَانِي يَنْفُسِيهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُودِي بَعْدَهَا {
(صحيح البخاري)

وفي مرضه الذي توفي به كان يقول:

{ سُدُّوا عَنِّي كُلَّ حَوْجَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، غَيْرَ حَوْجَةِ أَبِي بَكْرٍ {
(صحيح البخاري)

كان يحبه حباً يفوق الخيال، وهو صاحبه في الغار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا

(سورة التوبة: الآية 40)



عصر المبادئ عند وفاة النبي الكريم

(وَلَوْ كُنْتُ مُنْجِدًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا) ولكن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليله هو الله، أما أبو بكر فصاحب وأخ في الله، كل هذه المحبة التي بينهما يقوم أبو بكر ليقول: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْزُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْزُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ) هذا عصر مبادئ، وقالها باللفظ المجرد، نحب إذا قلنا: محمد أن نقول: سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَسُولُ اللَّهِ، لكنه اختار في هذه اللحظة أن يقول: مَنْ كَانَ يَعْزُدُ مُحَمَّدًا، حاشاه أن يكون إقلا من شأن رَسُولُ اللَّهِ أَبِي هو وأمي وإنما أراد أن يتجرد للمبدأ وأن يوقظ الناس من غفلتهم بصدمة، ثم تلا قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ

(سورة آل عمران: الآية 114)

فيقول عمر رضي الله عنه: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقَزْتُ، حَتَّى مَا تُثَلِّبِي رَجُلًا، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ جِبْنَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ) فهذا عصر اسمه عصر المبادئ كما يذكره ابن نبي رحمه الله، عصر المبادئ.

عصر الأشخاص

ثم تأتي عصور أخرى القيمة فيها للشخص، للخليفة، الناس تتعلق بعدل عمر، أو بصلاح الدين الأيوبي الذي فتح القدس وهذا عصر أشخاص وهو عصر جيد عندما يكون الأشخاص جدين، نحن جميعاً نحب من أبنائنا أن يتعلقوا بالرموز والقنوات، فمجتمع بلا قنوات مجتمع هالك، فما المانع من أن تتعلّق بالأشخاص؟! لكن على ألا نقدرهم ولا نعظمهم إلى درجة أن يخطئوا ثم نبقي متعلقين بهم على خطئهم فيكون هذا حياً مع الله لا حياً في الله! فعصر أشخاص، ثم ذهب عصر الأشخاص وجاء عصر الأشياء، وفي عصر الأشياء قيمة المرء متاعه، وقيمة المرء ما يملكه ويستمد قيمته من طراز سيارته، وفي أحدث التطورات يستمدّها من رقم سيارته الذي يباع بالملايين، ومن مساحة بيته، ومن، ومن، ومن، فصبح قيمة الإنسان هي أشياءه وليس ما يحمله من قيم، ويتعامل الناس بهذا المنطق مع الآخرين وهذه المصيبة الكبرى في أن يصبح تعامل المجتمع مع الآخرين هو تعامل بقيمة الأشياء وليس بقيمة المبادئ فينظرون إلى من يملك الأكثر نظرة التعظيم الأكبر وهذا خطأ كبير، وقد ورد في التوراة:

قصة سيدنا عمر مع جيلة بن الأيهم



تمسك سيدنا عمر بالمبادئ

سيدنا عمر رضي الله عنه، والقصة تعرفونها، لما جاءه جيلة بن الأيهم ملك الغساسنة، والغساسنة كانت تحت سلطة الروم من بلاد الشام، فجاءه مسلماً وكان عمر رضي الله عنه في مكة في موسم الحج، أسلم جيلة وإسلامه كان خيراً كبيراً في نظر كل المسلمين، أن يسلم ملك من الملوك ويدخل في دين الله، فأكرمه عمر رضي الله عنه وأدنى مجلسه وحبه في الدين، وهذا مطلوب أن تكرم القدوات وأن تكرم عزيز قوم جاءك طائعاً، تكرمه، وأن تحفظ للناس منازلهم وأن تنزلهم منازلهم هذا مطلوب، فأكرمه أيما إكرام ثم إن جيلة أراد أن يطوف بالبيت فبينما هو يطوف بالبيت إذا بدوي من فزارة يدوس على طرف رداءه فيسقطه عن كتفه خطأ فيعظم في نفسه ذلك وهو الملك فيلتهت غاضباً إلى هذا البدوي فيضربه ضربة تهشم أنفه، فيذهب هذا البدوي من فزارة إلى عمر رضي الله عنه ليشكو له ما فعل هذا الملك، فيستدعي عمر رضي الله عنه ملك الغساسنة ويجلسه بين يديه أيام رجل من عامة الناس ويسأله أصبح ما ادّعى هذا القزاري الجريح؟ فيجيب: نعم، لا أنكر ذلك أنا أدبته لأنه أسقط الرداء عن كتفي، فيقول له: لا بد أن ترضيه أو يهشمن الآن أنفك وتال ما فعلته كفاً، إما أن ترضيه وإما أن يصنع بك ما صنعت به؟ يستعظم ذلك جيلة، يقول له: كيف ذاك؟ هو رجل سوقي وأنا عرّش وتاج، أنا ملك وهو سوقي، قال له: الإسلام سوى بينكما، هذا عصر المبادئ، الإسلام سوى بينكما، أنت الآن وهو في منزلة واحدة، فيغضب جيلة ويقول: كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، كنت متوهماً أنني بمكانة كبيرة عندك! أهكذا يهون عليك الأمر؟ أنا مرتد إذا أكرهتني، سارت عن الدين، فيقول له عمر:

قال: أنظرني حتى الصباح، سأخذ قراراً على مهلي، وأراد شيئاً وأضمره في داخله فارتحل ليلاً مع أصحابه ورجع إلى مملكته في الروم وارتد عن دين الله تعالى، وخسر عمر جيلة لكنه ربح المبدأ، ولم يقل: لنراض الأعرابي بشيء من المال ليسأج ثم نيقه في الإسلام، المبدأ فوق الشخص، هذا عصر المبادئ، المبادئ فوق الأشخاص، وللفادة هذا الرجل ذهب وتتضرّ وعاد إلى هرقل، وهرقل أدنى مجلسه وجعل له قصراً عظيماً؛ فرح به لأنه عاد إليه، ثم إن عمر رضي الله عنه أرسل رسولاً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فلما عاد من عنده سأله عمر: أقيت هرقل؟ قال: نعم، قال: وقدمت له الرسالة؟ قال: قدمت الرسالة، هرقل اعتنى بالرسالة وما أجاب إلى الإسلام لكنه احترم أن عمر رضي الله عنه يرسل له رسالة في عصر عظمة الفتوحات الإسلامية، فاحترم الرسالة ولكن لم يجب لا بنفي ولا بإثبات، انظروا عمر، عمر لم ينسى جيلة، قال له: ولقيت جيلة؟ قال: لقيته، قال: وماذا كان يصنع؟ قال: كان يشرب الخمر، فقال عمر: "أبعده الله، تعجل فانيةً بآقية"، أخذ الدنيا وترك الآخرة، قال عمر: فماذا قال لك؟ قال: سمعته ينشد



المبادئ فوق الأشخاص

تمنى لو أنه بقي عند عمر رضي الله عنه وقد فقد سمعه وبصره لكنه بقي على الإسلام وما تنصّر من أجل لطمية، بعد أن فات الأوان ويبدو أنه وجد أن لا رجوع له، إذ تمادى في المعصية والعباد بالله، فهذا عصر المبادئ، هذا عصر إصلاح لأن المبدأ أساس، المبدأ فوق الشخص ونحن في أمتنا لا بد أن نتنصر للمبادئ على الأشخاص وأن نتنصر للأشخاص المحسنين على الأشياء فنعظم صاحب المبدأ والقيمة ولا نعظم صاحب الشيء إلا إن كان على مبدأ وقيمة فلا نعظمه لأشيائه، لا مانع أن تقدره لكن ليس لأشيائه بل لأخلاقه ولقيمه، أما التعظيم للأشياء فالأشياء تنفى وتذهب ولا يبقى منها شيء.

بنود منهج الإصلاح

أيها الكرام: منهج الإصلاح في القرآن ذكرته آية كريمة واحدة لخّصت كل المنهج وهذا من إعجاز القرآن الكريم؛ قال شعيب عليه السلام مخاطباً قومه كما في القرآن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ وَمَا أَرِيدُ أَن أُخَالِقَكُمْ إِلَىٰ مَا أَتَّهَكُمُ عَنْهُ ۖ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

(سورة هود: الآية 88)

كيف لخصت المنهج؟ لخصت المنهج بخمسة بنود:



البينة هي الوضوح

1. وضوح المنهج (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي) فالإصلاح ينبغي أن يحتاج إلى منهج وهذا المنهج ينبغي أن يكون مستمدًا من وحي السماء (إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ) يعني شيء واضح (مِن رَّبِّي) أما أن يكون الإصلاح على المنهج الغربي فهذا ليس إصلاحًا، أما أن يكون الإصلاح على منهج الإعلام فهذا ليس إصلاحًا، لا أقول: إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ؛ أَنَا (عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي)، فالإصلاح ينبغي أن يكون المنهج واضحًا لأن البينة هي الوضوح، شيء بين واضح، ومِمَّنْ؟ (مِن رَّبِّي) إِذَا الْإِصْلَاحُ يَنْبَغِي أَن يَسْتَنِدَ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ لَا إِلَىٰ مَنَهِجِ أَهْلِ الْأَرْضِ، الإصلاح ينبغي أن يستند إلى القرآن والسنة فما أحله الشرع حلال وما حرّمه الشرع حرام، إِذَا وَضُوحُ الْمَنْهَجِ.



القدوة مصلح لمن حوله

2. القدوة: (وَمَا أَرِيدُ أَن أُخَالِقَكُمْ إِلَىٰ مَا أَتَّهَكُمُ عَنْهُ) فالمُصْلِح ينبغي أن يكون قدوةً لمن حوله فيبدأ بنفسه قبل أمر الآخرين بالإصلاح (وَمَا أَرِيدُ أَن أُخَالِقَكُمْ إِلَىٰ مَا أَتَّهَكُمُ عَنْهُ) لا أريد أن أترككم وأفعل الشيء الذي نهيتكم عنه فأقول لكم: الربا حرام وأرأبي، وأقول لكم: الزنا حرام وأزني والعباد بالله، وأقول لكم: السرقة حرام وأسرق والعباد بالله، (وَمَا أَرِيدُ أَن أُخَالِقَكُمْ إِلَىٰ مَا أَتَّهَكُمُ عَنْهُ) هذا ليس إصلاحًا لأنه إِن لَمْ يَزَلِ النَّاسُ فِي الْمَصْلَحِ سُلُوكًا يَتَوَافَقُ مَعَ مَنْهَجِهِ فَإِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَكْفُرُونَ بِكَلِمَتِهِ وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُ (وَمَا أَرِيدُ أَن أُخَالِقَكُمْ إِلَىٰ مَا أَتَّهَكُمُ عَنْهُ).

3. الإرادة الصادقة في الإصلاح: (إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ) فمن لم يملك الإرادة في الإصلاح لن يصلح.



أهمية الحوار في الأسرة

4. استنفاد الجهد: (مَا اسْتَطَعْتُ) يعني أن أستنفد الجهد في الإصلاح، أن أبذل كل ما أستطيع سأبذل كلَّ جُهدٍ ممكن في سبيل الإصلاح، الإنسان في تجارته ألا يستنفد جهوده لتحصيل أكبر مبلغ مالي ممكن؟! إذاً في إصلاح المجتمع أو في إصلاح الزوجة والأبناء ينبغي أن تبذل كل جهد ممكن، تحتاج جلسة يومية مع الأولاد مع الزوجة تسمع ما الذي يحدث حولك، لا بد من أن تستنفد الجهد في الإصلاح.
5. وأخيراً التوكل على الله والإجابة إليه: (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) إياك أيها المصلح أن تتكل على نفسك تقول: أنا أصلح أولادي، لا، الله يصلحهم ولعله يجعلني سبباً في إصلاحهم، أما المصلح فهو الله جلَّ جلاله هو الذي يصلح أما أنا سبب: أبذل جهدي والأمر لله (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

مفهوم الإصلاح في الحديث الشريف

إخواننا الكرام:

{ عَنْ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ فَرَسًا أَهَمَّهُمْ سَأَلَ الْمَرْأَةَ الْمُخْرُوجَةَ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، جَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أَسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ خُدُودِ اللَّهِ؟!، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ قَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا }

(أخرجه مسلم والنسائي)



الإصلاح يشمل الجميع

تروي السيدة عائشة رضي الله عنها: لما سَرَقَتْ الْمَرْأَةُ الْمُخْرُوجَةُ قَاطِمَةَ بِنْتُ أَسَدٍ كَانَتْ كَمَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ تَسْتَعِيرُ الْجَلِيَّ عَلَى أَنَّهُ اسْتِعَارَةٌ ثُمَّ تُنْكَرُ عَلَى مَنْ أَخَذَتْ مِنْهُمْ الْجَلِيَّ، فَكَانَتْ تَسْرِقُ، فَوَصَلَ أَمْرُهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الْحَاكِمُ وَأَمْرُ بِعَقُوبَتِهَا وَإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهَا، (فَرَسًا أَهَمَّهُمْ أَمْرُ الْمَرْأَةِ الْمُخْرُوجَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟) نريد واسطة بالعرف الحديث من يتوسط؟ (فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، جَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يحبه حياً جماً فيستطيع أن يكلمه، (فَكَلَّمَهُ أَسَامَةُ) ولربما قال بعدها: ليتني لم أتحدث! وكلم رسول الله في شأن تلك المرأة فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ خُدُودِ اللَّهِ؟ ثُمَّ خُطِبَتْ فَقَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ قَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) هذا الإصلاح، الإصلاح يشمل الجميع، اليوم يسمونها سيادة القانون، أول من أقرها الإسلام لكن بإصلاح عام وشامل، فقال: (وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ قَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) حاشاها أن تسرق لكن يبين للناس عظمة هذا الدين.

وأخر ما أختم به حديث جميل جداً فيه عبرة كبيرة:

{ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهَاجِرُهُ الْبَحْرِ، قَالَ: أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَايِبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟ قَالَ فُتَيْبَةُ مِنْهُمْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ يَقْتَى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَيْفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَأَنْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا! فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ التَّقَتِ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا عَذْرُ إِذَا وَصَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيِّ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَ بِالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ عَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَتْ صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ }

(صحيح ابن ماجه)



الحكمة صالة المؤمن

(مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ) الذي هاجروا في البحر إلى الحبشة، (أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَايِبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ)؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألهم عما رأوا في الحبشة، من فقه الإنسان أن يتعلم من غيره، أن يسمع، رجعت من سفر أسألك ما الذي رأيته؟ شيء حسن أخذ به، شيء سيء أفهم مساوئه، حدثني، ربما أستفيد حتى لو كان من أشخاص غير مسلمين، الحكمة صالة المؤمن، إن كان شيئاً حسناً أستفيد منه، (قَالَ فُتَيْبَةُ مِنْهُمْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ) عن ماذا سيحدثونه! عن الطعام أو عن الفواكه الغريبة أو عن الأرض أو عن الخيام أو عن العمران؟، (عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ) راهبة، (تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ) جرة ماء، (فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا عَذْرُ) أي يا غادر، (كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ) كيف يُعَلِّي مكان أُمَّة ويطهرها ويجعلها في مقدمة الأمم وهم لا يأخذون لضعفهم من شديدهم، هذا الإصلاح في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة.

أسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا والحمد لله رب العالمين.